أيها الحكيم الجليل «مسيو تولستوي»:

«لم نحظ بمعرفة شخصك، ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك، سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت في آفاقنا شموس من آرائك، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك. هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التي فطر الناس عليها، ووقفك على الغاية التي هدى البشر إليها.. نظرت نظرةً في الدين مزّقت حجب التقاليد ووصلت بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه؛ فكما كنت بقولك هاديًا للعقول كنت بعملك حاثًا للعزائم والهمم.. وكما كانت آراؤك ضياءً يهتدي بها الضالون كان مثالك في العمل إمامًا يقتدي به المسترشدون...»

الإمام الشيخ

محمد عبده

مقدمة

«**إن أعماله خطوة إلى الأمام في التطور الفني للبشرية جمعاء**» قالها لينين حين قرأ أعمال تولستوي الإبداعية، ولا يجانبنا الصواب أيضًا إذا وسمنا أعماله وكتاباته بأنها أعمال متعددة الرؤى. حيث إننا لو نظرنا إليها من منظار فلسفي سنجد فيها فلسفة عالية انصهرت فيها الفلسفات القديمة والحديثة. وإذا نظرنا إليها في الوقت نفسه من منظار إبداعي وفنّي سنجدها بلغت درجة سامقة من حيث التجديد في أهم المعايير الفنية وعلى رأسها إطار السرد الحكائي.

وإذا نظرنا إلى كتاباته المتعددة من معيار التأثير والتأثر؛ سنجدها حققت أعلى درجات الإعلامية من حيث التأثير والتأثر دون غيرها من الكتابات؛ فمن حيث التأثر لا نكاد نجد كتابات هضمت واقع العصر المعيش مثل كتابات ومؤلفات ليو تولستوي. ومن حيث التأثير لا نجد كتابات أو مؤلفات تركت أثرًا في أكبر عدد من القرّاء على مستوى العالم كلّه – مثل كتابات تولستوي.

كان تولستوي ومازال الكاتب الروسي العظيم الذي ترك بصماته التي لا تُمحى في مسيرة الأدب العالمي، والذي خلق صورًا فنية رائعةً خالدةً، تأثر بها الأدب العربي مثلما تأثرت بها الآداب العالمية الأخرى، وخطا خطواتٍ واسعةً إلى الأمام في مسيرة الأدب العالمي، إذ قدّم له رواياتٍ، لا تقل من حيث الأهمية التاريخية، عن «إلياذة» هوميروس مثل «الحرب والسلام» (١٨٦٣-١٨٦٩) وكان لهذا الكاتب أتباعٌ في شتى أصقاع المعمورة في فرنسا والهند وفي كل مكانٍ.

ولا نكاد نغالي أو نخرج عن دائرة الصواب إذا قلنا إنه لم يحظ كاتب - أو مبدع أو مؤلف - بشهرة واسعة في القرن التاسع عشر في روسيا أو غيرها من بلدان العالم مثلما حظي تولستوي الذي عاش ما ينيف على ثمانين عامًا؛ كان فيها شاهدًا ومشاركًا في أحداث عديدة وكبيرة الأهمية، واستطاع أن يطبع في أدبه الحياة الروسية في القرن التاسع عشر وأوائل العقد الأول من القرن العشرين بدءًا من عصر ما قبل الحرب الوطنية عام ١٨١٢م وحتى نهاية أحداث ثورة عام ١٩٠٥ - ١٩٠٧م.

واستطاع خلال هذه الفترات أن ينمّي أدبه على أرضية عصره؛ بحيث يصبح مرآة مصقولة لامعة تعكس أدواء مجتمعه كي يتمكّن من علاجها بمشاركة الجميع؛ وهذه لا شك يجب أن تكون دائمًا مهمة الأدب الفعّالة في المجتمع.

وفي حقيقة الأمر حين عرض عليّ الناشر المثقّف الأستاذ عبود مصطفى الكتابة حول شخصية تولستوي - ظننت أن الأمر سهلًا ويسيرًا؛ لأنني كنت قد قرأت أثناء فترة الجامعة بعض مؤلفات تولستوي وخاصةً اعترافاته. إلا أنني لم ألبث أن تراجعت عن الكتابة عنه فقد تملكتني الرهبة الشديدة، وحاولت أن أتعرف أكثر على شخصية تولستوي المعقدة من خلال كتبه ومؤلفاته المختلفة التي تم نقلها إلى العربية.

وبعد أن قطعت شوطًا كبيرًا في قراءة مؤلفات تولستوي توصّلت إلى نتيجة محتواها أن من أراد أن يرسم صورةً واضحة لتولستوي فعليه بقراءة كتابات ومؤلفات تولستوي كلّها وعلى رأسها اعترافاته. فهو:-

- فيلسوف كبير ومفكر بعيد النظرة في استطلاع آفاق المستقبل؛ هذا إذا نظرنا إلى كتاباته من منظار فلسفي.

- وأيضًا روائي وقاص مبدع، يتربع على القمة السامقة لشجرة الإبداع.
- وقارئ ذو عقل هاضم لا يتقبل الأفكار والأشياء على علّاتها؛ بل ينقد ويمحص ويفحص. وهو منصف؛ يقول الحق في أحلك اللحظات حتى لو كلفه ذلك فقدان حياته.
- إنسان يحب الخير للجميع؛ يسخّر قلمه دائمًا للدفاع عن الطبقات الفقيرة والكادحة في المجتمع. وهو طالب علم شغوف.. وهو ضابط من أمهر ضباط المدفعية في الجيش الروسي..
- مصلح اجتماعي له باعٌ كبير في الإصلاح، كما أنه رحالة.
- صحفي ساهٍ في التنوير والتغيير بقلمه.
- مدرّس وتربوي ماهر لأبناء الفلاحين. حيث ساعد على تغيير وتطوير نظم التعليم في روسيا.
- وهو مزارع ماهر متواضع يعمل ساعات طويلة في حقله دون أن يكلّ أو يملّ..
- وهو رجل حياته مليئة بالمتناقضات الكثيرة.. إنه –حقًّا– شخصية معقدة..!! إذا صح لنا هذا التعبير.

- لكن في النهاية من هو تولستوي؟!!

أقول – ولله الحمد والمنة– إنني قد عصرت ما أتيح لي تناوله من مؤلفات تولستوي العديدة؛ وذلك كي أستخلص من هذه العصارة الإبداعية، الثقافية، الفلسفية، والتنويرية ما ييسر لي رسم الصورة الصحيحة لتولستوي، وكما يجب أن تكون..

- تولستوي الأديب والمبدع..

- تولستوي الفيلسوف والمفكر..
- تولستوي الإنسان..

ومن هنا أدعوك أيها القارئ العزيز للتعرف على صورة تولستوي كما رسمتها من خلال الكتاب الذي بين يديك.. (ليو تولستوي.. حياته وفلسفته وأدبه)

وأنبه أن هذا العمل لا يدّعي لنفسه الكمال؛ فما كان من توفيق فمن الله، وما كان من خطإٍ أو سهوٍ ونسيانٍ فمني ومن الشيطان، وحسبي ما بذلت فيه من جهد (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

صدق الله العظيم

المؤلف..